الفصل العاشر

فلسفة التواصل عند هابرماس

أصبح مفهوم التواصل من المفاهيم المركزية المتداولة في الفلسفة المعاصرة. إذ لم يعد الاهتمام بالتواصل منحصرا في المجال التداولي المرتبط بتبادل المعلومات و تقنيات تبليغها و ايصالها، بل أصبح يشكل نظرية علمية و فلسفية مستقلة بذاتها. و تعد مرجعية هابرماس الفلسفية دليلا على هذا التحول. أنها مرجعية استفادت من نظريات العلوم الاجتماعية التي كانت سباقة إلى التمهيد لذلك التحول عندما ركزت على أن الأنا أو الهوية الذاتية هي حصيلة تفاعل رمزي مع الآخرين.

سنسلط الضوء، في هذه الورقة، على مشروع هابرماس الرائد، في الفلسفة النقدية الالمانية المعاصرة من خلال التركيز على الهم الذي حرك الرجل و هو: كيف يكون الاندماج الاجتماعي ممكنا؟ باعتباره الإشكال الذي اعتزمت فلسفة التواصل لدى هابرماس الإجابة عنه.

لا ينبغي الاعتقاد من عنوان هذه الورقة أن هابرماس يتناول مسألة التواصل كما لو كانت موضوعا فلسفيا، بالمعنى الحرفي للكلمة. بل يتناولها من منظور السوسيولوجيا أو علم الاجتماع، بوصفها فعلا اجتماعيا، لا فعلا له صلة كلية بالوعي الانساني. و بهذا المعنى يصح القول: أن هابرماس ينتصر للنظرية الاجتماعية على حساب فلسفة الوعي. إذ ثمة فرق بين تناول التواصل من منظور الفاعل للتواصل، و بين تناوله كما لو كان فعل حوار أو تحاور تتدخل فيه أطراف متعددة[1].

و بهذا الخصوص يعترف هابرماس بفضل علماء الاجتماع في بلورة هذا المنظور الجديد للتواصل قائلا:

---

(١) بهذا الصدد انظر: مانفريد فرانك، حدود التواصل، ترجمة عز العرب الحكيم بناني، الدارالبيضاء،٢٠٠٢، ص ١٥.

"إن تحول المنظور الذي انتقل من الفعل الغائي إلى الفعل التواصلي بدأ مع ميد و دوركهام. فهؤلاء إلى جانب ماكس فيبر ينتمون إلى جيل المؤسسين للسوسيولوجيا الحديثة"[١].

بهذا الخصوص، يحمل على نظريات اجتماعية يتهم تناولها للفعل التواصلي بالقصور و الاحادية الجانب، و يقصد هنا: النظرية الوظيفية... فطرق تناول مسألة التواصل لدى هده النظرية و شبيهاتها، لا تقدم، حسب هابرماس، رؤية واضحة لانها ظلت سجينة التصور الفلسفي الأرسطي لمفهوم الفعل الغائي، أو الموجه بغاية، و الذي يشكل أحدى دعامات الفلسفية الارسطية.

ما المقصود بالفعل التواصلي لدى هابرماس ؟

يحدد هابرماس الأفعال التواصلية على النحو التالي: "هي تلك الأفعال التي تكون فيها مستويات الفعل بالنسبة للفاعلين المنتمين إلى العملية التواصلية غير مرتبطة [٢]. بحاجيات السياسة، بل مرتبطة بأفعال التفاهم". و لاتفاهم بدون لغة؛ و هذا ما يبرر كلام المهتمين بهابرماس عن المنعطف اللساني لديه، و الذي يشير إليه هو بنفسه. و هو ما دفعه إلى إدخال اللغة كعامل لفهم العلاقات التواصلية. فلتعزيز تصوره للفعل التواصلي من أجل فهم أفضل للعلاقات الأجتماعية داخل المجتمع ذهب إلى أن الفعل التواصلي يتميز عن غيره من الأفعال الأخرى بأنه لا يسعى للبحث عن الوسائل التي تمكنه من التأثير في الغير، بل يبحث عن كيفية التوصل إلى تفاهم معه و توافق متبادل دونما إكراه أو قسر كيفما كان نوعهما.

إذا كان التفاهم الغاية القصوى للفعل التواصلي، فأنه لا يمكن تصوره بين الأطراف المتحاورة إلا بشروط من أهمها عدم تأثير طرف على آخر لأن ذلك لو حصل يِؤدي حتما إلى فشل التواصل يقول هابرماس:

---

(1)J.Habermas, Theorie de l'agir communicationnel, Trad .JM. Ferry, Paris, 1987, T.1, p.9

(2)Ibid, p.10

"إن نشاط التفاهم المتبادل يخضع لشرط أساس به يحقق المعنيون مشروعا لا تفاقهم المشترك... فهم يسعون لتفادي خطرين: يتمثل أولهما في فشل التفاهم المتبادل و سوء الفهم؛ بينما يتمثل الثاني في فشل مشروع الفعل و الاخفاق التام. فتنحية الخطر الأول شرط لابد منه لتلافي الثاني"(١).

شتان إذن ما بين الاتفاق الذي هو سليل التفاهم، و التأثير الذي هو سليل الاكراه و الضغط، يتسم فيه الفعل التواصلي بالهيمنة. فالتفاهم صنو و رديف للفعل التواصلي من حيث أنه يهدف إلى تحقيق الاتفاق؛ و هو ما يطلق عليه هابرماس أيضا اسم الاجماع، إذ في ظل غياب هذا الأخير بين أطراف الفعل التواصلي، يفشل هذا الأخير. ثمة إذن شروط حجاج و مناظرة بدونها لا يتحقق الأجماع العقلاني. ذلك أن الاستعمال اللغوي إذا كان يتضمن حججا مبنية، فانه سيؤدي حتما إلى تحقيق اتفاق مشترك. لأن الهدف بالنسبة لهابرماس من الدخول في تحاجج، هو التوصل إلى تواصل كامل.

عارض الفيلسوف الفرنسي المعاصر جون فرنسوا ليوطار J.F Lyotard مفهوم الاجماع لدى هابرماس معتقدا أن جوهر الأمور هو الأختلاف و النزاع، و لا إبداع بدونهما، متهما في نفس الوقت هابرماس بأنه يدافع عن مشروع الحداثة المؤسس على فكر الانواريين و يسعى إلى بناء خطاب فلسفي يتخد الاجماع هدفا له؛ بينما يعتبر ليوطار الحداثة خطابا متجاوزا تظل كل محاولة لرد الاعتبار له محاولة يائسة. أن جوهر الأبداع و التطور، في اعتقاد ليوطار، هو الأختلاف و ليس الأجماع (٢).

أي دور للفلسفة في فعل التواصل ؟

ما مهمة الفلسفة عند هابرمس، فيلسوف التواصل، في زمن التحولات الكبرى؛ على صعيد الفلسفة و على صعيد الخارطة

---

(1)Ibid, p.417.

(٢) مانفرد فرانك، حدود التواصل، مصدر آنف، ص ٧٦ و ٥٤.
M.Franck, La condition post moderne, Paris, 1979.

الجيوسياسية العالمية عقب سقوط حائط برلين و إنهيار الايديولوجيات الكبرى؟

حمل هابرمس حملة شعواء على الميتافيزيقا تستعيد تقليد مدرسة فرنكفورت بهذا الخصوص حيث التأكيد على أنه ليس من شأن الفلسفة اليوم أن تتأمل في معرفة المطلق ، بل عليها أن تقلع عن التفكير فيه. و هو يتهم التيارات الفلسفية المختلفة التي عاصرها بتفاوتها مع اللحظة التاريخية لالمانيا. و قد تبلور لديه، انطلاقا من ذلك، ما يمكن تسميته فكرا ما بعد ميتافيزيقيا.

اعتقد هابرماس أن الفلسفة المطلقة كانت تشكل عائقا أمام تطور العقلانية حين تصورت أنها تمتلك الحقيقة و العقلانية التي يريدها هابرماس في المجتمع المعاصر، مجتمع ما بعد الحرب العالمية الثانية ليست عقلانية مطلقة، تدعى الفلسفة بناءها لوحدها بل عقلانية تواصلية نقدية اجرائية مندمجة في العالم المعيش. و لتوسيع هامش هده العقلانية الجديدة و بلورتها، انتقد الاتجاهات الوضعانية الجديدة المعجبة بالعلم إلى حد تأليهه. و هو ما خصص له كتابين هما:

- العلم و التقنية كايديولوجيا؛
- المعرفة و المصلحة [1].

و الملاحظ أن نقد الوضعانية تقليد متواتر لدى أعضاء مدرسة فرانكفورت. فقد سبق لهربرت ماركوزه أن خصص صفحات رائعة في كتابه العقل و الثورة لمناقشة أوحسنت كونت و نقد الوضعانية الكلاسيكية؛ كما افرد كتاب الأنسان ذو البعد الواحد لنقد التقنية و التيارات المعجبة بها و بالعلم...

يؤكد هابرماس أن الفلسفة لا يمكنها أن تكون علوما حقة مثلما يدعى الوضعانيون و ما تأكيده المتكرر على خصوصية العلوم الأنسنانية سوى محاولة لأبعاد شبح التطرف العلمي الوضعاني عنها؛ وسحب البساط من تحت أقدام العقل التقني بغية بلورة نظرية فلسفية نقدية تعمل على تحرير الأنسنان و تحرير محيطه من هيمنةالعلم

---

(1)J.Habermas, La science et la technique comme idiologie, Trad .J .Ladmiral, Paris, 1973 ; J.Habermas, Connaissance et intérêt, Trad. J .Ladmiral, Paris, 1976.

والتقنية؛ أنها نظرية تقرن النظر بالعمل؛ إذ في المصلحة التحريرية والانعتاقية للأنسان تجد الفلسفة مكانها، حسب هابرماس. فعلى الفلسفة مسؤولية التصدي لكل هيمنة تقنية تعمل على تشييئ الانسان وتحويله إلى سلعة. بذلك ستسعى الفلسفة إلى خلق حوار داخل مجتمع خال من الهيمنة، و تلعب دورا بارزا في إزالة كل الآثار التي شوهت الحوار الذي بإمكانه أن يوصل النوع البشري إلى مستوى النضج والرشد و يعني هذا، من بين ما يعنيه أن مستقبل الفلسفة يظل رهينا بالممارسة السياسية[1]. خصوصا و أن الأنسانية تعيش في ظل أوضاع تتسم بالتطور الاقتصادي و العلمي و التقني، أي نعيش في ظل أوضاع تتسم بتسييس العلم و التقنية و علمية السياسة، و منح صلاحية اتخاد القرارات الكبرى للتقنوقراط.

هكذا يتبين أن نظرية التواصل عند هابرماس انبنت على موقف جديد من الفلسفة، يعيد تحديد مهامها و أهدافها بحيث تندمج في افق نقدي جديد فتلعب دورا ايجابيا و فعالا ضمن مباحث أخرى كعلم الأجتماع و مجمل العلوم الانسانية في إطار تكاملي، و ليس في إطار الهيمنة على تلك العلوم. و بذلك ابتعد هابرماس عن كنط و هيغل و هذا ما عنيناه في البداية بابتعاده عن فلسفة الوعي.

عندما ترجم كتابه العمدة نظرية الفعل التواصلي إلى الفرنسية، و ضع له مقدمة أعلن فيها أنه لا يريد صياغة نظرية جامعة مانعة، بل سيكتفي باقتراح العناصر النظرية الضرورية التي تساعد الفلسفة على اعادة النظر في ذاتها و فهم ذاتها و ذلك بالدخول في تعاون مع العلوم الاجتماعية على قاعدة الأهمية التي تحظى بها هذه الأخيرة في النظرية النقدية.

بذلك اطلق هابرماس الفلسفة من عقالها الميتافيزيقي و أخرجها إلى الفضاء العمومي . و هذا الأخير مفهوم جديد أهتم به هابرماس في كتاباته الفلسفية كرديف و مرادف للممارسة أي التأثير الذي يمكن أن تقوم به الفلسفة في الفضاء العام و المجتمع المعاصر لأنها مطالبة بأن تلعب أدوارا مخالفة لتلك التي لعبتها في المجتمعات السابقة. لم يعد بمقدور الفلسفة إدعاء الشمولية أو التأسيس (هيغل – كنط)؛ بل هي ملزمة بأن تنخرط في هموم المجتمع كالديمقراطية إذ لا فضاء عمومي

---

(1) J.Habermas, Profils philosophiques et politiques , Trad .J .Ladmiral, Paris, 1974, p .45.

سليم لا تعمه الديمقراطية و أخلاقيات الحوار و يتمتع بحقوق الأنسان كما ينبذ العنف.

من هذا المنظور قام هابرماس بمحاورة أبرز الفلسفات الالمانية التي عاصرها. و في هذا السياق قام بما اسماه أعادة البناء النقدي للمادية التاريخية مستلهما في ذلك التراث النقدي لمدرسة فرانكفورت، و تراث عصر الأنوار. و قد ضمن تلك العملية كتابا سماه: ما بعد ماركس [١]. أكد فيه أن الماركسية لم تستنفد كل طاقاتها و أمكاناتها التحفيزية بوصفها فلسفة تحررية؛ و المطلوب، في اعتقاده، هو جعلها تساير عصرها و لا تتخلف عنه. أن هذا الأمر يعني بالنسبة لهابرماس إعادة تأهيل الماركسية لكي تساير متطلبات المجتمع الالماني ما بعد الحرب العالمية الثانية؛ و هو ما اقتضى تطعيمها بعدة مفاهيم مستقاة من نظرية الفعل التواصلي يقول: "رغم أن نظرية التواصل وظيفة حل المسائل ذات الطابع الفلسفي و التي تهم ابستمولوجيا العلوم الاجتماعية و أسسها فاني أرى لها علاقة وثيقة جدا بالمسائل التي تطرحها نظرية التطورالاجتماعي"[٢].

في هذا السياق تساءل هابرماس: كيف يكون الفعل الاجتماعي التواصلي ممكنا؟ أشرنا آنفا إلى ما يسمى في تطور هابرماس الفكري بالمنعطف اللساني؛ نشير إلى أنه حصل بتأثير من غادمير H.G. Gadmer عليه خصوصا في الاعتقاد بأن منطق العقلانية الاجتماعية يتجلى في اللغة اليومية الطبيعية، أن هذه الأخيرة هي عماد كل تفاعل اجتماعي سيتحول اهتمامه عندئذ نحو مبحث اللغة و التداول الذي ظل الغائب الاكبر في النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، مع جيلها الاول.

و هذا ما قاده إلي تحويل علم الاجتماع و نظريته الاجتماعية إلى فلسفة للتواصل[٣]. لهذا تبنى الاطروحة التداولية في اللغة لكل من اوستين و فتغنشتين. و بذلك انتقل من فلسفة المعرفة بمعناها الكلاسيكي إلى فلسفة التواصل. و هو انتقال حصل بتزامن مع انعطافه اللساني؛

---

(١) ترجمة محمد ميلاد، دار الحوار، اللاذقية، ٢٠٠٢.

(2)J.Habermas, Après Marx , Trad .J .Ladmiral, Paris, 1985, p .26-27.

(3)M.Pusey, Jurgen Habermas, London, 1987, p.64.

تجلى واضحا مع صدور كتابه المعرفة و المصلحة في مطلع السبعينات، إضافة إلى مجموعة مقالات نشرها مجتمعة بعد صدور كتابه نظرية الفعل التواصلي (١٩٨١)، و كان ذلك سنة ١٩٨٤.

يعتقد هابرماس أن الفكر ما بعد الميتافيزيقي هو مفتاح الانعطاف نحو الاهتمام باللغة و التواصل كما أن التحول من فلسفة المعرفة الى فلسفة التواصل ينطوي على تجاوز لفلسفة الذات و الوعي بمختلف اشكالها و وجوهها رغبة في بناء فلسفة تواصلية مؤسسة على مبدأ البيذاتية INTERSUBJECTIVITE الذي تعد اللغة أحد مكوناته الاساسية؛ و في هذا السياق كان اهتمام هابرماس بالتداولية و نظريات الافعال اللغوية.....

أن المدخل الى فلسفة التواصل لدى هابرماس هو نقد فلسفة الذاتية، و هو نقد اتخذ طابعا راديكاليا حينما انفتح على رؤوس الفلسفة التحليلية أمثال فتغنشتين و اوستين و سورل... فقد اعتبران التقليد الديكارتي طبع تاريخ الفلسفة بان حول المعرفة إلى عملية تتم بين ذات وموضوع [1].

إن المذهب الذي يقترحه هابرماس بديلا لفلسفة الذات هو الفلسفة العقلانية التواصلية نظرا لأنها تقوم على العلاقة بين الذوات كما تسعى إلى ضبط علاقة الفرد بالغير و اخضاع العلاقات الاقتصادية والاجتماعية و السياسية داخل المجتمع إلى اخلاقيات النقاش و الحوار بوصفه مدخلا لكل تعاقد اجتماعي يحتكم اليه الجميع لذا و بعيدا عن كل استحضار لعقل خالص، يسعى هابرماس إلى تأسيس عقلانية تواصلية لا صلة لها بالميتافيزيقا. أن كل عقل هو عقل بيذاتي أي حصيلة تفاعل بين الذوات داخل المجتمع.

بسبب الدور الذي لعبته الاتجاهات التحليلية في الفلسفة، وبسبب ما اتت به النظرية التداولية، فرضت هذه الاخيرة نفسها كبعد ثالث مكمل للتركيب و الدلالة. و في هذا الصدد ساهمت اعمال اوستين في كشف الغطاء عن الابعاد التداولية للغة؛ و بذلك تحولت التداولية إلى مبحث جديد يولي عناية كبرى للشروط خارج اللغوية، المتعلقة بالسياق و الاعراف التفاهمية و مقاصد المتكلمين...

---

(1)J.Habermas, La science et la technique comme idiologie, p .167.

هابرماس مدين لهذا المبحث في تحوله إلى فلسفة التواصل و في هجرانه لنظرية المعرفة و الايديولوجيا...

لقد أملى هذا الانفتاح على التداولية، مشروع هابرماس الرامي إلى بناء عقلانية في المجتمع المعاصر؛ و هو أمر لا يتحقق دون ضمان شروط التفاهم باعتبارها تضمن نجاح الممارسة التواصلية اليومية.

و تتمثل أهمية التداولية، بالنسبة لهابرماس، في ابراز الشروط الممكنة للتفاهم أو ما سماه بالفعل التواصلي. و لتحقيق التفاهم كان انعطاف هابرماس اللساني باعتبار اللغة وسيطا بين الذوات عبره يتحقق التفاهم داخل المجتمع و على هذا الأساس أهتم بالافعال الكلامية على طريقة اوستين و سورل و سعيا لبلوغ هذا المرمى، حدد هابرماس للتداولية المهام التالية:

١. وصف الاشياء بواسطة اللغة.
٢. التعبير عن مقاصد المتكلم.
٣. تأسيس علاقات بيذاتية بين المتكلمين المتحاورين.

و كل عملية تواصلية لا تقوم لها قائمة، في تصور هابرماس، دون توفر هذه الشروط-الدعاوى و الالتزام بها؛ بذلك تتم العملية الحوارية من دون اكراه أو ضغط. و في هذا الصدد يقول في منطق العلوم الاجتماعية: "يتعين على كل متكلم أن يختار تعبيرا مفهوما واضحا لكي يتمكن المتكلم و المستمع من التفاهم فيما بينهما، إذ يجب على المتكلم أن يكون لديه قصد تبليغ مضمون قضوي حقيقي لكي يتمكن المستمع من مشاطرته معرفته، كما عليه أيضا أن يفصح عن مقاصده لكي يتمكن المخاطب من تصديق اقواله. و أخيرا يتعين على المتكلم اختيار عبارات صحيحة تلتزم حدود المعايير و المقاييس الجاري بها العمل لكي يتمكن المخاطب من قبول تلك العبارات بكيفية تجعل المتكلم و المخاطب في وضعية تؤهلهما للاتفاق"(١).

على هذا النحو تستطيع الذوات المتفاعلة تحقيق التفاهم. و قد أعتبر هابرماس أن نظرية الافعال اللغوية واعدة في هذا الصدد. خصوصا وأن هابرماس ينظر الى اللغة لا في بعدها المعرفي كما يفعل تشومسكي، بل في بعدها التواصلي و الاستعمالي التداولي

(1)J.Habermas, La logique des sciences sociales , Trad .Rochitz, Paris, 1987, p .331

متسائلا عن شروط الممارسة الاجتماعية القائمة على التداول السليم لشروط التداول المثالي للغة.

وجدها برماس في نظرية الافعال اللغوية سندا و دعما لنظريته في الفعل التواصلي، فإذا كان اوستين قد ربط اللغة و المعنى بالبسياق، فان هابرماس سيدمج آراء اوستين و سورل في نظرية الفعل التواصلي، معتبرا أنه ما دام الفعل التواصلي موجها نحو التفاهم، فإن الفعل الكلامي ينبغي الحكم عليه باعتباره حكما مقبولا عندما- يحصل ذلك التفاهم [1].

ما المقصود بالعقلانية التواصلية؟

يعتبرها برماس هذه العقلانية سمة من سمات الفكر ما بعد الميتافيزيقي؛ و يطلق عليها أحيانا العقلانية الاجرائية، أي المتجسدة في الممارسة الحجاجية.

هذا و يخلص هابرماس إلى التمييز بين فعل تواصلي قوي، وفعل تواصلي ضعيف، و هو تمييز اتى في كتابه الحقيقة و التبرير [2].

و يستنتج من مجمل التفصيلات التي قدمها بخصوص الفرق بينهما أنه استثمر مباشرة نظرية الافعال اللغوية في نظرية الفعل التواصلي، حيث أنه ربط الفعل التواصلي القوي بشكل كبير بالفعل الانجازي و بالاستخدام التواصلي للغة المتصل مباشرة بالعالم الاجتماعي المرتكز إلى العالم المعيش و المتكون من القيم و المعايير المشتركة بين الفاعلين في المجتمع. و عليه فإن هذا النموذج العقلاني التواصلي يسعى إلى تحقيق التفاهم و الاتفاق بين أفراد الجماعة التواصلية بخصوص قضايا معينة، لأن تحقيق هذا التفاهم يعد أحد تجليات نجاح الفعل الكلامي عند هابرماس.

لذا فجوهر الفعل التواصلي العقلاني هو الفعل التواصلي القوي باعتبار هذا الأخير محايثا للعقلانية التواصلية و التي يكون المشتركون

---

(1)Ibid, p.430.

(2)J.Habermas, Verité et justification, Trad .Rainer Roschlitz, Paris, 2001, p. 56.

فيها متوفرين على فرصة امكانية النقد، نقد لادعاءات مخاطبيهم عكس ما في الفعل التواصلي الضعيف.

من خلال هذه الاهمية التي أضحت للتخاطب في الدراسات اللسانية المعاصرة المهتمة بالتواصل، ارتبطت العقلانية التواصلية في الفكر ما بعد الميتافيزيقي، لدى هابرماس، بالتواصل إلى حد أنه تم الربط بين العقلانية و المستوى التواصلي في الكلام.

في هذا السياق، انشغل هابرماس بسؤال الأخلاق، لكن لا في بعده الميتافيزيقي، بل في بعده التواصلي، إذ معه سيدشن ما اصطلح عليه أخلاقيات النقاش. و يشكل ذلك منعطفا بارزا في تفكيره، ضمنه كتابه الوعي الأخلاقي و الفعل التواصلي[1]. بين فيه أن هدفه هو توظيف منطق نظرية الفعل التواصلي قصد بلورة نظرية الفعل التواصلي أنطلاقا من أخلاقيات النقاش أو الحجاج.

تقليد فلسفي الماني، يعدها برهامس و كارل اوتو آبل DISKURSETHIK أخلاقيات النقاش.

من أبرز ممثليه. لكنه يضرب بجذوره ايضا في الفكر الانجلوسكسوني، KARL OTTO APEL .

النقاش في R. RORTY و رتشارد رورتيJ.RWALS والامريكي بالذات مع جون رولز.

أخلاقيات المناقشة. لا ينظر إليه هابرماس على إنه موضوع للتنظيم بل يعتبره منهجا أو إجراء يسمح بتحديد معايير عادلة لزاوية النظر الاخلاقية. لذا لم يدع هابرماس إلى وضع معايير لاخلاقيات النقاش، تكون نابعة من الذات عل نحو ما فعل كنط و التقليد الفلسفى عامة؛ أنه سعى إلى جعلهت نظرية تبحث في الطرق و الاجراءات السلمية التي تمكن الذات المتفاعلة فيما بينها من التواصل عبر الحوار إلى صياغة تلك المعايير الاخلاقية [2].

---

(1)J.Habermas, Morale et communication , Paris, 1986. (ed.Flammarion)

(2) J.Habermas, L'Ethique de la discussion , Trad . M.Hungadi, Paris, 1992, p .35-36.

هذا ما جعل بعض المهتمين بافكار هابرماس، يذهبون إلى أعتبار اخلاقيات النقاش تأسيسا للمجتمع المدني؛ جان كوهان، على سبيل المثال،يذهب إلى أن تلك الأخلاقيات تمثل نظرية سياسية تعمل على التأسيس لمجتمع ديمقراطي مدني يستوعب التعدد و يكرس الحوار[1]. رفض هابرماس هذا الاختزال السياسي لأخلاقيات النقاش معتقدا أنها نظرية في التواصل،على وجه العموم، و قد يكون البعد السياسي أحد ابعادها.

إن السؤال الاساسي لتلك الأخلاقيات هو على أي مرتكز يمكن تأسيس المعايير و الأوامر؟

المعايير الاخلاقية هي تلك التي يقبلها أعضاء الجماعة التواصلية المعنيون بها بحيث تراعي مصالحهم المشتركة و يكون لها طابع كوني[2].

بهذا المعنى يغدو النقاش العملي إداة ذات مكانة جوهرية في سن المعايير و تبريرها، لأن التبرير عملية بيذاتية تداولية غير منفصلة عن الاجتماع؛ كما أنه وسيلة ملائمة لتأسيس تصور مجتمع حداثي في عصرنا هذا، عصر تراجع دور التقليد و العادات في شد أواصر العلاقات الاجتماعية؛ عصر تعدد المعتقدات و الاعراف و التجمعات داخل نفس المجتمع؛ عصر تصاعد النزاعات الدولية مما يهدد الاستقرار و السلم العالميين؛عصر تصاعد المصالح التجارية و الاقتصادية؛ عصر الاستغلال المفرط للبيئة و تفاقم الاحتباس الحراري الكوني.....

من هنا تأتي أهمية أخلاقيات النقاش و الحوار، فمعاييرهما هي ما قد يكفل التوازن الدولي و يدعم تنمية المجتمعات. ذاك هو رهان أخلاقيات النقاش شريطة أجماع الكل على قواعد و معايير و ضوابط يلتزم بها المتحاورون في أطار فعل تواصلي.

هذا و قد دعم هابرماس اطروحته هذه بالنظرية الحجاجية فاستمد منها القواعد الصورية التي يجب على المتحاورين الالتزام بها

---

(1) J.Cohen, Discourse ethics and civil society , in, civil society and political theory, London, 1999, p .219.

(2) Davis, FJ, Discourse ethics and ethical realism, p.244.

قصد تحقيق الاجماع أو اتفاق العقول. و بانفتاحه على النظريات الحجاجية، كان هابرماس يهدف إلى تأسيس مبدأ استدلالي في أخلاقيات النقاش، يتشبه بذلك الموجود في العلوم الحقة [1].

و القواعد التي اقترحها هابرماس هي التالية:

١. لكل من هو قادر على الكلام و الفعل نصيب كامل في النقاش.
٢. لكل الحق في اثارة أي اشكال أو اعتراض على أي تأكيد كيفما كان؛ يندرج ضمن هذا الحق حق الاعتقاد في آراء ما ولتعبير عنها.
٣. لا يحق منع أي كان منن المتحاورين من النقاش و لا استعمال أسلوب الاكراه عليه [2].

تفترض جميع هذه القواعد المشاركة و الندية بين المتحاورين: لكل الحق في أن يدلي بدلوه و يفصح عما عنده دون تضييق أو مضايقة قصد تحقيق الاجماع.

إضافة إلى القواعد السالفة، زاد قاعدتين أخريين في صيغة افتراضيين مفادهما أن الدعاوى المعيارية للصلاحية تتضمن معنى معرفيا و يجوز التعامل معها بوصفها دعاوى للحقيقة؛ لذا ضرورة الدخول في نقاش حقيقي لتأسيس المعايير و الاوامر اعتمادا على العقل المتواصل المتحاور و ليس على العقل الفردي [3]. و تعني صفة المعرفية أن الشيء قابل للقبول أو الرفض خلال عملية الحوار التي هي أخذ و رد.

إن التركيز في اخلاقيات النقاش على أهمية الحجة و الحجج في صياغة المعايير الاخلاقية و الاجتماعية دفع البعض إلى القول بأن أخلاقيات النقاش ما هي، في حقيقة أمرها، سوى تداولية فلسفية صيغت على شكل منعطف لساني تداولي أساسه التشديد على أهمية القوة غير القسرية للحجة الأقوى.

---

(1) J.Habermas, Morale et communication, p.108-110.

(2) J.Habermas, Morale et communication, p.111.

(٣) نور الدين افاية، الحداثة و التواصل، بيروت- الدارالبيضاء، ١٩٩١، ص.٢٠٦.

يبدو أن اخلاقيات النقاش عند هابرماس تهتم بالمعايير، معايير الفعل التواصلي، و هو أمر لن يتم، بالنسبة لهابرماس إلا في إطار الدولة الدستورية، حيث يكون بامكان المواطنين المشاركين في سياسة تشاورية أن يصلوا إلى تأسيس معايير تحظى بأحترام الجميع و قبولهم [1].

فالمعايير ليست قرارات شخصية، بل هي مؤسسة على امكانية تبريرها تبريرا عقلانيا اعتمادا على عملية حوارية حجاجية[2]. لذا فخلافا للتمييز اللفظي الشهيلر بين العقل الخالص و العقل العملي، يعمد هابرماس إلى دمجهما في بعضهما؛ أي أن صلاحية المعايير الاخلاقية يحكمها تصور عملي ذو صلة بممارسة النقاش و الحجاج أي تقوم في الواقع على الاعتراف بالمعيار في إطار نقاش يعترف ضمنيا به و تقبله جميع أطراف الحوار ثم أن ما يهم هابرماس هو سن معايير كونية قادرة على حل المشكلات التي فيها تتخبط البشرية و تعمق ثقافة السلام بين الأمم و الشعوب.

و عليه فأن أخلاقيات النقاش، هي في العمق، أخلاقيات المسؤولية؛ و هذا ما أكد عليه زميل هابرماس و الحقيقة أن أخلاقيات المسؤولية تحولت في KARL OTTO APEL رفيقه في الدرب كارل اوتو آبل.

الآونة الآخيرة الى تقليد فلسفي في ألمانيا؛ و هي من إبداع الفيلسوف الالماني هانز يوناش.

في كتاب شهير له يدعى مبدأ المسؤولية له عنوان فرعي هو: اخلاقيات الحضارة التكنولوجية [3]. يريد صاحب هذا الكتاب بهذه الاخلاقيات أن HANS JONAS.

تكون بديلا للاخلاقيات التقليدية الميتافيزيقية و أن تكون أخلاق المستقبل نظرا للتحديات التي افرزها العلم في الآونة الراهنة التي لم

---

(1)J.Habermas, Verité et justification, Trad .R. Rochlitz, Paris, 2001, p. 206.

(2)Ibid, p.206

(3)H.Jonas, Principe de responsabilité : une éthique pour la civilisation technologique, Trad. J. Greich, Paris, 1990.

تعد فيها البشرية منكبة على حل مشكلاتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فحسب، بل انضافت لها مشكلات البيئة و التلوث و الانحباس الحراري.... أي ما انتبه إليه تقرير نادي روما لسنة ١٩٧٢. لذا سيعمل كارل اوتو ابل على دعم اخلاقيات النقاش بما ورد في مبدأ المسؤولية، في إطار حواري تواصلي يدعو إلى تجند جميع الاطراف للتفاهم حول سبل مواجهة الخطر المحيق بالبشرية [١].

يمثل الارتباط الذي إقامه ابل بين النقاش و المسؤولية تصورا مخالفا لتصور يوناش الذي يربط المسؤولية بالذات على الطريقة الكنطية؛ بينما يجعل ابل المسؤولية عبر النقاش مسؤولية جماعية مشتركة؛ أي أن كل عضو في جماعة التواصل يتحمل جانبا من المسؤولية فيما يحدث حالا أو مآلا و لا يستثني أحد من المسؤولية، فالامر يتعلق اليوم ،حسب ابل، "بتنظيم، و في إطار نقاش عملي، تنظيم مسؤولية للتضامن أزاء الأفعال الجماعية"[٢].

ثمة،إذن، بعد سياسي لا ينكر في نظرية هابرماس و زميله كارل اوتو ابل لاخلاقيات النقاش خصوصا حينما ربطاها بمبدأ المسؤولية. بمعنى أن الجميع مطالب بإن يتحمل مسؤوليته التاريخية في وضعية عالمية لم تعهدها البشرية من قبل كما لا يمكن تصور نتائجها على الاجيال المقبلة [٣].

و ليس الهاجس،هنا، هاجسا فلسفيا أو ميتافيزيقيا، بل هو هاجس تواصلي؛ و قد أوضح هابرماس ذلك بصيغة لا لبس فيها حينما قال: "لقد شرعنا في السنين الآخيرة، أنا و زميلي كارل اوتو ابل في محاولة أعادة صياغة ما نسميه تأسيس المعايير،أي الأخلاق الكنطية، اعتمادا على وسائل مستمدة من نظرية التواصل"[٤]. ذلك أن المشاركين في النقاش أو المتناظرين هم أناس واقعيون تختلف رغباتهم

---

(1)K.otto Apel, Discussion et responsabilité : l'ethique après Kant, 1996

(2)Ibid, p.30.

(3)K.otto Apel, Discussion et responsabilité, Paris, 1998, p.39-56.

(4)J.Habermas, Ethique de la discussion, op.cit, p.15.

و دوافعهم
ومصالحهم مما يعطى للنقاش قيمته.

خاتمة

يمكننا أن نستشف من أفكار هابرماس بخصوص أخلاقيات النقاش، و الفعل التواصلي أنهما مبحثان مترابطان استند فيهما إلى معطيات المنعطف اللساني و كذا إلى النزعة الليبرالية للفيلسوف الامريكي رولز؛ أن أنهما مبحثان لهما أمتداد في الحقل السياسي.

فنظرية الديمقراطية التشاورية التي كرس لها هابرماس أعماله المتأخرة، إبتداء من التسعينات، تعد أهم انجاز في ميدان الفلسفة السياسية المعاصرة. و تعد نظرية الديمقراطية التشاورية توسيعا لمجال الفعل التواصلي؛ إذ لا يمكن فصل التشاور عن هذا الفعل التواصلي الذي نظر له هابرماس قبل أخلاقيات النقاش.

بعد كتاب نظرية الفعل التواصلي (١٩٨١) ثم بعد الانشغال بأخلاقيات النقاش سيصدر هابرماس كتاب الديمقراطية التشاورية وقد اراد منه ان يكون بديلا للديمقراطية الليبرالية التي دافع عنها رولز في كتاب نظرية العدالة.

أن الفكرة المحورية لمشروع هابرماس في كتابه هي تأسيس الديمقراطية على أساس جماعة متواصلة خالية من أية هيمنة عدا هيمنة أفضل حجة. كما أن مفهوم التشاور المرتبط بأخلاقيات يعد مفهوما مركزيا لديه. ففي التشاور يعطى لكل عضو في الجماعة الحق في الكلام و الفعل بخصوص القضايا السياسية و...المطروحة في الفضاء العمومي. و في ظل ذلك النقاش العقلاني المؤسس يتشكل الرأي العام
والارادة السياسية العامة للمواطنين في المجتمع الديمقراطي الذي يلعب فيه التشاور دورا مركزيا.

هكذا تمثل مساهمات هابرماس في مجال الفلسفة السياسية وخاصة في نظرية الديمقراطية التشاورية مساهمة نوعية تندرج في اطار نقد أشكال الأنظمة الكليانية كالنازية...

يقوم نموذج الديمقراطية التشاورية على الرغبة في تجاوز الليبرالية المتوحشة و النزعات الكليانية. فالتضامن هو أساس الاندماج

الاجتماعي في الدمقراطية التشاورية بصفة أعضاء المجتمع مواطنين في الدولة أي أصحاب الحق الأحرار المتساوين أمام القانون.

فالنموذج التشاوري للديمقراطية، هو في اعتقاد هابرماس نموذج تواصلي. في هذا المنظور مفهوم السلطة. فإذا كان في كتاباته الأولى نحا على السلطة باللائمة معتبرا اياها مرادفا للهيمنة باعتبار ركيزتها هي المال و الاعلام؛ و هي كلها عوائق أمام تحقيق التواصل الشفاف في المجتمع، فإنه في أعماله COMMUNICATIVE POWERالمتأخرة عدل موقفه بأن تحدث عن السلطة التواصلية.

التي أصبحت مفهوما متداولا في ارائه بخصوص الديمقراطية التشاورية. أن السلطة التواصلية سلطة غير قمعية و غير قهرية؛ ليس قوامها الاكراه و الهيمنة، لأنها نابعة من الفعل الجماعي. أنها التواصل السياسي عندما يغدو مؤسسات في دولة الحق و القانون [1].

يعكس مفهوم السلطة التواصلية محاولة من هابرماس لاعادة صياغة و تحديد نظرية التعاقد الاجتماعي عندل روسو بجعل العلاقة بين السلطة و المواطنين علاقة افقية بدل أن تكون عمودية، معتقدا بذلك أن هذا القلب هو ما يضمن أن تكون السيادة للفعل فعلا.

هكذا نلاحظ التحول الكبير الذي حصل في فلسفة التواصل لدى هابرماس من تأسيس التواصل على اللغة إلى تأسيسه سياسيا؛ و هو تحول آتى في مطلع التسعينات من القرن المنصرم.

---

(1)J.Habermas, Droit et democratie, Trad .R. Rochlitz, Paris, 1997, p. 189.